الفصل السادس عشر

جمع القرآن

يقتضينا الحديث عن جمع القرآن أن نعود بالذاكرة إلى غزوة اليمامة . فعلى أثرها بدأت فكرة هذا الجمع ، ثم نُفِّذت ، واستغرق التنفيذ ما بقى بعد اليمامة من خلافة الصدِّيق . وفى رواية أنه استغرق زمناً من عهد عمر . وإنما أرجأنا الحديث فى هذا الموضوع لئلا نقطع حديث الحرب والفتح ، وليكون حديثنا عن جمع القرآن متصلا حتى وفاة أبى بكر .

غزوة اليمامة وأثرها فى حياة المسلمين

كانت غزوة اليمامة أعظم الغزوات فى حروب الردّة ، كما كانت أجلّها خطراً وأبعدها أثراً . قضى مقتل مُسيلمة بن حبيب قضاء حاسماً على المتنبئين فى بلاد العرب ، وآذن عود بنى حنيفة إلى الإسلام بالقضاء على الردّة بالبحرين . والقضاء على ردة البحرين هو الذى طوّع للمثنّى بن حارثة الشيبانى أن يسير إلى مصبّ دجلة والفرات ، وأن يكون الطليعة الميمونة لفتح العراق ولإقامة بناء الإمبراطورية الإسلامية . غَزاةُ ذلك شأنها لم يخطئ خالد بن الوليد حين دفع إليها جيوش المسلمين يَقْتُلون ويُقْتَلون ويقضون على مسيلمة وأصحابه عند احتمائهم بحديقة الموت ، ولم يبالغ المهاجرون والأنصار حين اندفعوا إلى وطيسها مستميتين يبتغون الشهادة . استُشهد من المسلمين يومئذ مئتان وألف ، بينهم تسعة وثلاثون من كبار الصحابة ومن حفّاظ القرآن .

وقد جزع أهل المدينة لمن استُشهد من المسلمين باليمامة واشتد حزنهم ، وإن

اختلفت البواعث لهذا الحزن والجزع . فأواصر القربى وروابط الودّ والصداقة وتقدير ما كان لكبار الصحابة وحفّاظ القرآن الذين استُشهدوا من مكانة سامية عند الرسول عليه السلام ، كل هذه كانت دوافع تحزّ فى النفوس . لقى عمر بن الخطاب ابنه عبد الله بعد أن أبلى فى اليمامة أحسن البلاء ، وكان عمر شديد الجزع لمقتل أخيه زيد بها ، فكان أول ما واجه به ابنه ما أسلفنا ذكره من قوله : « ما جاء بك وقد هلك زيد ! ألَا واريت وجهك عنّى ! » . وكان جواب عبد الله : « سأل الله الشهادة فأعطيها ، وجهدت أن تساق إلىّ فلم أُعْطَها » .

على أن جزع ابن الخطاب لمقتل أخيه زيد وأصحابه الذين استُشهدوا باليمامة لم يَثْنِه عن التفكير فى أمر خطير ، هو لا ريب أجلّ الأمور فى حياة الإسلام والمسلمين خطراً . لقد استُشهد من حفّاظ القرآن فى هذه الغزاة من استشهد . واليمامة ليست إلا واحدة من الغزوات التى واجهت المسلمين بعد وفاة الرسول . فما عسى أن يكون الأمر إذا تلاحقت الغزوات فقتل فيها من الحفّاظ مثل من قتل باليمامة ؟ ! فكر عمر فى هذا وطال تفكيره . فلما استقرّ به الرأى ذهب إلى أبى بكر وهو بمجلسه من المسجد فقال له : « إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بالناس . وإنى أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه . وإنى لأرى أن تجمع القرآن »[1] .

عمر يشير على أبى بكر بجمع القرآن

لم يكن أبو بكر قد فكر فى هذا الأمر . لذلك لم يلبث حين سمعه أن قال : « كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ! » . عند ذلك دار بين الرجلين حوار طويل لم يورد المؤرخون تفصيله . واقتنع أبو بكر بعد هذا الحوار برأى عمر ، فدعا زيد بن ثابت . جاء فى البخارى عن زيد بن ثابت أنه قال :

---

(١) بين الروايات التى أوردت عبارة عمر خلاف في اللفظ ولكنها متفقة كلها فى المعنى . ومن هذه الروايات أنه قال : « إن القتل قد استحر بقراء القرآن يوم اليمامة ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن كلها فيذهب قرآن كثير ، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن » .

رواية البخارى عما دار بين أبى بكر وعمر وزيد بن ثابت

« أرسل إلىّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر . فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال إن القتل استحرّ يوم اليمامة بالناس و إنى أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه . و إنى لأرى أن تجمع القرآن . قال أبو بكر فقلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ! فقال : هو والله خير . فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله لذلك صدرى ورأيت الذى رأى عمر . قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم ، فقال لى أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا نتّهمك ، كنت تكتب الوحى لرسول الله (ص) ، فتتبّع القرآن فاجْمَعْه . فوالله لو كلّفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن . قلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله (ص) ؟ فقال أبو بكر : هو والله خير . فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ، فقمت فتتبّعت القرآن أجْمعه من الرِّقاع والأكتاف والعُسُب[1] وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خُزَيمة الأنصارىّ لم أجدهما مع غيره : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » . فلما نسخنا الصحف فى المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب ، كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها لم أجدها مع أحد إلا مع خُزيمة الأنصارىّ الذى جعل رسول الله شهادته بشهادة رجلين : « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ » فألحقتها فى سورتها . فكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفّاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر » .

---

(١) العسب : جمع عسيب . وهو هنا : ما لم ينبت عليه الخوص من جريد النخل .

هـــذا حديث زيد بن ثابت فيما رواه البخاريّ . وقد أجمعت الروايات على صحته . وذكر القرطبيّ أن زيداً جمع القرآن غير مرتّب السور بعـد تعب شديد ، وأن الصحف حفظت بعد جمعها عند أبى بكر ، ثم عنـد عمر ، ثم عند حفصة أم المؤمنين .

الروايات عن جمع عمـر وعثمان القرآن

وتذهب رواية إلى أن عمر بن الخطاب أوّل من جمع القرآن فى المصحف[1] . ذلك أنه سأل يوماً عن آية من كتاب الله ، فقيل كانت مع فلان فقُتل يوم اليمامة . فقال إنا لله ! وأمر بالقرآن فجمع . وأصحاب الرواية المتواترة يردّون هذا القول بأن عمر كان أوّل من رأى جمع القرآن لأنه أشار على أبى بكر بذلك وأقنعـه به ، أما الجمع فتم فى عهد الصدّيق . وهـذا الرأى هو الصحيح . يؤيد ذلك ما رُوى عن علىّ بن أبى طالب أنه قال : « رحمة الله على أبى بكر ! كان أعظم النـاس أجراً فى جمع المصاحف . وهو أوّل من جمع بين اللوحين » . وقد تواترت بذلك شهادة عدد كبير من أصحاب رسول الله .

والذين قالوا إن عمر أول من جمع القرآن يذكرون أنه حين أراد أن يجمعـه قام فى النـاس فقال : « من كان تلقّى من رسول الله صلى الله عليـه وسلم شيئاً فليأتنـا به » . وكانوا كتبوا ما تلقّوه من ذلك فى الصحف والألواح والعُسُب . وكان عمر لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد عليه شاهدان . وقُتل وهو يجمع ذلك إليه ؛ فقام عثمان بن عفّان فقال ما قال عمر وصنع صنيعه ، وعهد إلى زيد بن ثابت بجمع القرآن ، وضم إليه نفراً من الحفّاظ وقال لهم : « إذا اختلفتم فاكتبوا لغة مُضَر فإن القرآن نزل على رجل من مضر » .

---

(١) راجع صفحـة ٢٠ من كتاب المصاحف لابن أبى داود ، وصفحة ٥٩ من كتاب الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى .

أمّا والثابت المقطوع به أن أبا بكر هو الذى أمر بجمع القرآن بعد حواره مع ابن الخطاب ، فيجمل بى قبل أن أُفَصِّل كيف كان هـذا الجمع أن أقف عند قول الصدِّيق : « كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم » . فقد نزل الوحى بالقرآن على رسول الله خلال ثلاث وعشرين سنة ، منذ بعثه الله نبيًّا وهو بمكة إلى أن قبضه إليه وهو بالمدينة . وكان الوحى ينزل ببعض الآيات أحياناً ، وبالسورة كاملة أحياناً أخرى . ولقد كان أوّل ما نزل من الوحى قوله تعالى : « اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، ٱلَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ ٱلْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » . أمّا بقية هذه السورة على ما نتلوها اليوم فى المصاحف فنزلت بعد ذلك ، وبعد أن نزل غيرها من الوحى قبل نزولها . أفيعنى قول أبى بكر وقول زيد بن ثابت من بعده : « كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله » أن القرآن بقى إلى وفاة الرسول لم يجمع سوراً ، ولم ينتظم كتاباً ، فبقيت الآيات التى نزلت فُرادَى لم تضمّ إلى غيرها على الصورة التى نراها اليوم بها ، فلما كان الجمع رتّبت السور ونظمت فى كتاب ؟

هل جمعت الآيات سوراً فى حياة رسول الله

هذا ما يقول به بعض المؤرخين ، وترجحه طائفة من المستشرقين . بل لقد نسب إلى زيد بن ثابت أنه قال : « قُبض النبىّ ولم يكن القرآن جُمع فى شىء » . والمستشرق الإنجليزى سير وليم ميور يسوق هذا القول فى مقدّمة كتابه عن سيرة الرسول حجة من الحجج على الدقة والصدق فى جمع القرآن فيقول : « إن القرآن بمحتوياته ونظامه ينطق فى قوة بدقة جمعه ؛ فقد ضمَّت الأجزاء المختلفة بعضها إلى بعض ببساطة تامة لا تعمُّل ولا تكلف فيها . وهذا الجمع لا أثر فيه ليد تحاول المهارة أو التنسيق . وهو يشهد بإيمان الجامع وإخلاصه لما يجمع ؛ فهو لم يجرؤ على أكثر من تناول هذه الآيات المقدَّسة ووضع بعضها إلى جانب بعض » . والمستشرقون المؤيدون لهذا الرأى يؤاخذون زيد بن ثابت والذين عاونوه فى جمع القرآن بأنهم لم يراعوا فى ترتيب

رأى لبعض المؤرخين يؤيده المستشرقون

القرآن أوقات نزوله ، ولم يقدّموا ما نزل منه بمكة على ما نزل منه بالمدينة ، بل وضعوا آيات مدنيّة خلال السور المكية دون أن يقتضيهم المقام هذا الصنيع . ولو أنهم راعوا الدقة التاريخية فى الترتيب لكان ذلك أدنى فى نظر هؤلاء المستشرقين إلى التحقيق العلمى ، وأجدى فى كتابة السيرة وفى تتبع أحوال النبى العربى من يوم بعثه إلى يوم وفاته .

ويزيد المستشرقون أن جامعى القرآن لم يعنوا كذلك بتأليف آياته حسب موضوعاتها . فأنت ترى فى السورة الواحدة شؤوناً مختلفة من القصص والتاريخ ، ومن الإيمان والعبادات ، ومن الأحكام التشريعية ، ومن قواعد الخُلق . وأنت ترى الموضوع الواحد من هذه الشؤون جميعاً مذكوراً فى سور مختلفة على صور تتقارب أو تتفاوت فى اللفظ وفى قوة العبارة . أمّا وقد كان الجامعون أحراراً فى ترتيب الآيات فى السور فهم جديرون ، فى رأى هؤلاء المستشرقين ، بالتثريب عليهم من الناحية العلمية ؛ لأنهم لم يراعوا الموضوعات ، وكان حقًّا عليهم أن يراعوها وبخاصة لأنهم لم يتقيدوا بمواقيت الوحى ونزوله .

نقد هذا الرأى والدليل على أن القرآن جمع سوراً فى عهد الرسول

هذه ملاحظات يبديها المستشرقون على جمع القرآن مستندين فيها إلى قول أبى بكر : « كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وهم مخطئون فى تحميل عبارة أبى بكر هذا المعنى ، وفى ظنهم أن الآيات ظلّت مبعثرة منذ نزولها إلى أن جُمعت فى عهد الخليفة الأول ، ثم فى عهد عثمان . فالأمر الذى لا ريبة فيه أن الآيات قد جمعت سوراً فى عهد رسول الله وبتوقيفه . ولقد كان مالك يقول : « إنما أُلّف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وكان عبد الله بن مسعود يقول : « قرأت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعاً وسبعين سورة . وقرأت عليه من البقرة إلى قوله تعالى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » . ولقد قرأ زيد بن ثابت القرآن كله على رسول الله . وفى مسلم والبخارى

الذين جمعوا القرآن فى عهد الرسول تلقيناً منه

عن أنس بن مالك أنه قال : « جَمَعَ القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار : أُبيّ بن كعب ، ومُعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد » . وقول أنس لا يراد به أن هؤلاء الأربعة هم الذين حفظوا القرآن فى عهد النبي دون سواهم . يقول القرطبي : « فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان ، وعليّ ، وتميم الدارىّ ، وعُبادة بن الصامت ، وعبد الله بن عمرو ابن العاص . فقول أنس : لم يجمع القرآن غير أربعة ، يحتمل أنه لم يجمع القرآن وأخذه تلقيناً من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير تلك الجماعة ؛ فإن أكثرهم أخذ بعضه عنه و بعضه عن غيره . وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم لأجل سبقهم إلى الإسلام ، و إعظام الرسول صلى الله عليه وسلم لهم » .

وروايات السلف متواترة على أن رسول الله كان يعرض القرآن على جبريل فى كل عام مرة ، فلما كان العام الذى قُبض فيه عرضه عليه مرتين . ومن هذا العرض فى عام الوفاة عرف عبد الله بن عباس ما نُسخ من القرآن وما بُدِّل .

وما ورد فى سيرة النبي يؤيد الروايات التى قدّمنا . من ذلك ما روى عن إسلام عمر بن الخطاب بعد عشر سنين أو نحوها من بعث محمد . فقد هال عمر ما أحدثه الدين الجديد من فُرقة بين أهل مكة اضطرت كثيرين منهم أن يهاجروا إلى الحبشة ، فرأى أن يقتل محمداً لتعود إلى قريش وحدتها . فلما ذكر له نُعَيْم بن عبد الله أن فاطمة أخت عمر وزوجها سعيد بن زيد أسلما ذهب إليهما ودخل البيت عليهما ، فسمع عندهما من يقرأ القرآن ، فبطش بهما حتى شجَّ أخته . وندم لما صنع ، وطلب إليها أن تعطيه الصحيفة التى كانوا يقرءون فإذا بها سورة طه . فلما قرأها أخذه إعجازها وجلالها وسمو الدعوة التي تدعو إليها ، فذهب إلى محمد فأسلم بين يديه .

قراءة عمر بن الخطاب سورة طه فى صحيفة يوم إسلامه

لم تكن الصحيفة التى سجَّلت سورة طه إلا واحدة من صحف كثيرة كانت

متداولة بين أيدى الذين أسلموا من أهل مكة سجّلت سوراً أخرى من القرآن . ولقد ظل رسول الله بين المسلمين بمكة وبالمدينة ثلاث عشرة سنة بعد إسلام عمر ، كان يقول خلالها لأصحابه : « لا تكتبوا عنى شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليَمْحُه » . وكان طبيعيًّا أن يكتب الصحابة كل ما يستطيعون كتابته من القرآن لتلاوته فى الصلاة ، ولمعرفة أحكام الدين الذى يؤمنون به . وكان يكتبه الذين يوفدهم النبي إلى القبائل لتعليم أهلها القرآن وتفقيههم فى الدين . وهم لم يكونوا يكتبونه آيات منقطعة ، بل سوراً متصلة يمليها رسول الله .

نصوص القرآن تؤيد جمعه سوراً فى عهد الرسول

ونصوص القرآن تؤيّد ما سبق . من ذلك قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ، نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً » . وآيات المزمِّل هذه نزلت فى الفترة الأولى من بعث الرسول . فمطالبة النبي فيها أن يقوم الليل يرتّل القرآن ترجح أن الآيات لم تكن مبعثرة من غير ترتيب ، وتؤكد ما قدّمنا من أن ما كان يوحى إلى النبي متصلا بوحى سبق إليه كان الوحى يُلحقه به . وذلك قولهم إن جبريل قال للنبي حين أوحى إليه قوله تعالى « وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » : « يامحمد ضَعْها فى رأس ثمانين ومائتين من البقرة » .

ولقد تكرر فى القرآن نعتُه بأنه الكتاب . وسورة البقرة أولى سور القرآن بعد الفاتحة تبدأ بقوله تعالى : «الم . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » . وهذا المعنى وارد فى مواضع كثيرة من سور مختلفة . والكتاب هو ما كتب منسّقاً . وقد كُتب القرآن فى عهد النبى كما أسلفنا من قول أنس بن مالك وقول غيره من أصحاب رسول الله . بل إن زيد بن ثابت نفسه ، وهو الذى قال كما قدّمنا : « قبض النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن القرآن جمع فى شىء » قد قال : « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرِّقاع» ، يريد بذلك تأليف ما نزل

رسول الله يتلو فى الصلاة سوراً كاملة

من الآيات المتفرقة فى سورها وجمعها فيها بإشارة رسول الله . وكثيراً ما كان رسول الله يتلو فى الصلاة وفى غير الصلاة سوراً كاملة منها البقرة وآل عمران والنساء والأعراف والجنّ والنجم والرحمن والقمر وغيرها . وهذا كله صريح فى الدلالة على أن ترتيب الآيات فى السور قد تم بتوقيف النبى ، وأنه قبض وهذا الجمع تام معروف المسلمين ، ثابت فى صدور القرّاء والحفّاظ .

ولقد رأيت كثيرين من الصحابة جمعوا القرآن على عهد النبى ، منهم أربعة جمعوه بإملائه . واتفاق المؤرخين منعقد على أن ترتيب الآيات فى السور كان واحداً فى كل المصاحف التى جمعت قبل وفاة الرسول ، وفى المصاحف التى جمعت عقب وفاته وقبل أن يأمر أبو بكر بجمع القرآن . أما ترتيب السور والابتداء بالفاتحة فالبقرة فآل عمران فالنساء فالمائدة والانتهاء بالمعوّذتين فذلك ما اختلف فيه ، وما قيل إن رسول الله تركه كله أو بعضه لأمّته .

ماذا أراد أبو بكر إذن بقوله ، ردّا على عمر حين أشار عليه أن يجمع القرآن : « كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ! » . وما هى الحجج التى شرحت صدر أبى بكر ثم صدر زيد بن ثابت لجمع القرآن والأخذ برأى ابن الخطاب ؟

على بن أبى طالب وجمع القرآن

لما تمت البيعة لأبى بكر لزم علىّ بن أبى طالب بيته ، وتحدّث الناس إلى أبى بكر فى أمره ، فأرسل إليه يقول : « أكرِهْتَ بيعتى فقعدتَ عنى ؟! » . فكان جواب علىّ : « لا والله ، ولكن رأيت كتاب الله يزاد فيه ، فحدّثت نفسى ألا ألبس ردائى إلا لصلاة حتى أجمعه »[1] .

---

(١) قول على «رأيت كتاب الله يزاد فيه» أورده السيوطى باسناده فى كتاب الاتقان . وقد اقتصر كثير من المؤلفين فيما رووا عن على أنه قال : آليت ألا ألبس ردائى إلا لصلاة حتى أجمع القرآن . ورواية ابن أبى داود فى كتاب المصاحف أن أبا بكر أرسل إلى على بعد أيام يقول : أكرهت إمارتى ياأبا الحسن ؟ قال : لا والله ، إلا أنى أقسمت ألا أرتدى بردائى إلا لجمعة ، فبايعه ثم رجع . ويضيف ابن أبى داود : وإنما رووا : حتى أجمع القرآن ، يعنى أنم حفظه ؛ فإنه يقال للذى حفظ القرآن قد جمع القرآن .

السبب فى تردد أبى بكر فى جمع القرآن أول ما عرض عمر عليه جمعه

ولم يكن علىّ وحده هو الذى دأب على جمع القرآن بعد وفاة الرسول ، بل دأب على ذلك كثيرون جعلوا يتلقّونه عمن يطمئنون إليهم من أصحاب رسول الله . وكما حمِد أبو بكر لعلىّ بن أبى طالب حديثه عن جمع القرآن حمد لغيره من المسلمين سعيهم فى جمعه ورأى فى عملهم تأسياً بالسابقين الأولين الذين جمعوه فى عهد رسول الله . ولم يَدُرْ بخاطره أن يصدّ أحداً دون هذا العمل الجليل ، مطمئنّاً إلى أن الله نزّل الذكر وهو حافظه ، وإلى أن المسلمين لن تحدِّث أحداً منهم نفسه بأن يدخل عليه ما ليس منه . فإذا أقدم أحد على ما قاله علىّ بن طالب من زيادة على القرآن ردّ الله كيده فى نحره ، وردّ الصالحون من المسلمين كلام الله إلى مواضعه . وذلك كان سبب تردده حين عرض عليه عمر أن يجمع القرآن . فقد كانت سُنّته ألا يصنع إلا ما كان يصنع رسول الله ، وألا يدع شيئاً كان رسول الله يصنعه . أمّا وقد ترك رسول الله كتابة القرآن للمسلمين ، وقد كتب بعضهم القرآن بإملائه عليه السلام ، ونقل آخرون عن هؤلاء الكاتبين وعمن وعت ذاكرتهم القرآن ، فليجر الأمر فى خلافته كما جرى فى عهد الرسول ، وليمسك خليفته فلا يُقْدِم على ما لم يقم هو به .

حجة عمر التى شرحت صدر أبى بكر لجمع القرآن

كانت هذه حجة أبى بكر وحجة زيد بن ثابت . فلما راجع عمر الخليفة عدل عن رأيه . ولئن لم يورد المؤرخون تفصيل ما دار بين الرجلين من حوار إن فيما أورده الرواة عن تاريخ القرآن لما يُفصح لنا عن حجة عمر وما يؤيدها ويجلو لنا اقتناع أبى بكر وزيد بن ثابت بها .

أنزل القرآن على سبعة أحرف

روى الترمذىّ قال : « لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل فقال : ياجبريل إنى بعثت إلى أمة أُمّية منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لا يقرأ كتاباً قط . فقال لى : يامحمد ، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف »[1] . وقد

(١) راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، جزء أول ، ص ٣٦ وما بعدها .

الأقوال فى الأحرف التى نزل عليها القرآن

اختلف العلماء فى المراد بالأحرف السبعة وأوردوا فيها خمسة وثلاثين قولا ؛ من هذه الأقوال أنه رخّص للمسلمين أوّل العهد بالإسلام أن يحلّوا المترادف محل بعضه إلا أن يخلطوا آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة . وذلك فى نحو هَلُمَّ وتَعَالَ وأَقْبِلْ وأَسْرِعْ وعَجِّلْ . وعن أُبَىّ بن كعب أنه كان يقرأ « لِلَّذِين آمَنُوا انْظُرُونَا » : « لِلَّذِين آمَنُوا أَمْهِلُونَا » ، « للذين آمنوا أَخِّرُونا » ، « لِلَّذِين آمنوا ارقبونا » وكان يقرأ « كلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ » : « مرروا فيه » ، « سعوا فيه » . ذلك أن أهل القبائل كان يُعجزهم أن يأخذوا القرآن على غير لغاتهم ، ولو راموا ذلك لم يتهيأ لهم إلا بمشقة عظيمة ، فوسَّع لهم فى اختلاف الألفاظ إذا كان المعنى متفقاً . فلما كثر اتصالهم برسول الله حفظوا القرآن بألفاظه ولم يسعهم أن يقرءوا بخلافها . وفى رأى أن الإباحة فى هذا كانت مطلقة أوّل العهد ثم نُسخت .

صحيح أن بعض الأقوال فى تأويل نزول القرآن على سبعة أحرف تخالف هذا القول ، فيذهب بعضها إلى أن فى القرآن سبع لغات هى لغات العرب كلها ، وأن هذه اللغات متفرقة فيه ، أو أن هذه اللغات السبع فى مضر . ويذهب بعض آخر إلى أن سبعة الأحرف تتصل بوجوه الاختلاف فى القراءة ، أو تتصل بمعانى كتاب الله . لكن هذه الأقوال لا تنفى القول الأول على الأقل أول ما بدأ الإسلام ينتشر فى القبائل . ويذكر بعضهم أن الأمر ظل كذلك سنين متعاقبة ، أو إلى أن قُبض النبى ؛ لكنهم يقيّدونه بأن ذلك كان بالوحى لا بالاختيار . يقول القرطبى : « إنما وقعت الإباحة فى الحروف السبعة للنبى صلى الله عليه وسلم ليوسع بها على أمته ، فأقرأ مرّة لأبيّ بما عارضه به جبريل ، ومرّة لابن مسعود بما عارضه به أيضاً ... وعلى هذا يحمل قول أنس حين قرأ : « إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هى أشدّ وطْئًا وأصوب قيلا » . فقيل له إنما نقرأ «وأقومُ قيلا» ، فقال أنس : « وأصوب قيلا وأقوم قيلا وأهيأ واحد» . فإنما معنى هذا أنها مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم . وإلا فلو كان هذا لأحد من الناس أن يضعه لبطل معنى قوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ

قراءات الصحابة وعرضها على رسول الله

الذين احتكموا إلى رسـول الله لخـلافهم فى القـراءة

نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » . روى البخارى ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب أنه قال : « سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنيها ، فكدت أن أُعجِّل عليه ثم أمهلته حتى انصرف ثم لببته بردائه ، فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرْسِله ، اِقرأ ؛ فقرأ القراءة التى سمعته يقرأ ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت . ثم قال لى : اقرأ ، فقرأت ، فقال : هكذا أنزلت ، إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه » .

وأضاف القرطبى قصة أُبىّ بن كعب إذ سمع رجلين بالمسجد يقرأان آيات بعينها فى الصلاة ، كلٌّ يقرأ غير قراءة صاحبه وغير قراءة أُبىّ ، فذهب بهما إلى رسول الله فحسّن النبي قراءتهم جميعاً . قال أُبىّ : « فَسقَط فى نفسى من التكذيب ولا إذ كنتُ فى الجاهلية ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما قد غَشِينى ، ضرب في صدرى فَفِضْتُ عرقاً ، وكأنما أنظر إلى الله تعالى فرقاً ، فقال : ياأُبىُّ ، أُرسل إلىّ أنِ اقْرَأْ القرآن على حرف ، فرددت إليه أن هوِّنْ على أمتى ، فردّ إلىّ الثانية اقرأه على حرفين ، فرددت إليه أن هوِّن على أمتى ، فردّ إلىّ الثالثة اقرأه على سبعة أحرف » .

نشأ عن ذلك خلاف فى بعض الألفاظ مما دوّن أو حفظ فى عهد رسول الله . روى ابن أبى داود في كتاب المصاحف أن عمر بن الخطاب كان يقرأ : « صِرَاطَ مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وغَيرِ الضَّالِّينَ » ، فى حين يقرأ غيره : « صراط الّذِين أنعمتَ عليهم غيرِ المغضوب عليهم ولا الضالين » ، وأنه رضى الله عنه قرأ : « الم . اللهُ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيَّامُ » بدل « القَيُّوم » . وكان علىّ بن أبى طالب يقرأ : « آمَنَ الرسُولُ بِمـا أُنزِل إليه وآمن المؤمنون كلٌّ آمن بالله » بدل « آمَنَ الرَّسُول

obeikandi.com

بما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ والمُؤمنونَ كلٌّ آمَنَ بالله »[1]. وكان أُبيّ بن كعب يقرأ « فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً » ، بدل « فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً »[2] ، وأثبت أُبيّ بن كعب فى جمعه القرآن نصوصاً تخالف فى بعض لفظها مصحف عثمان . من ذلك « فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَاتٍ » فى كفارة اليمين بدل « فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ »[3].

وشأن عبد الله بن مسعود كشأن أُبيّ بن كعب فى قراءته وفى مصحفه . فقد روى أنه كان يقرأ « والعصرِ ، إنّ الإنسانَ لفى خُسْرٍ ، وإنه فيه إلى آخرِ الدَّهْرِ ، إلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » فيضيف « وإنه فيه إلى آخر الدهر » ويحذف « وتواصوا بالحق » قبل « وتواصوا بالصبر » كما ثبت فى مصحف عثمان . وكان يقرأ « إنّ الله لا يظلمُ مِثقالَ نَمْلةٍ » بدل « إنّ الله لا يظلم مثقالَ ذرّةٍ »[4] وكان يقرأ « وتزوّدوا وخيرُ الزَّادِ التقوى » بدل « وتَزَوَّدوا فإنّ خيرَ الزَّادِ التقوى »[5] وقد أورد ابن أبى داود تفصيل هذا الخلاف فى الألفاظ ونسبه إلى أصحابه ومنهم عائشة أم المؤمنين . فقد روى أنه كان مكتوباً فى مصحفها « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر » بإضافة « وصلاة العصر » إلى ما فى مصحف عثمان . وذكر عن ابن يونس مولى عائشة أنه قال : كتبت لعائشة مصحفاً فقالت : إذا مررت بآية الصلاة فلا تكتبها حتى أُمليها عليك ، فأملتها علىّ « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر » . وقد وردت مثل هذه الرواية عن هذه الآية فى مصحف حفصة وفى مصحف أم سلمة زوجى النبى . وقيل بل أملت أم سلمة « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر » .

سورة العصر فى مصحف عائشة أم المؤمنين

أنت لا ريب قد رأيت مما قدّمنا أن الاختلاف فى القراءات وفى مصاحف

---

(١) س ٢ آ ٢٨٥ (٢) س ٤ آ ٢٤ (٣) س ٥ آ ٨٩

(٤) س ٤ آ ٤٠ (٥) س ٢ آ ١٩٧

الصحابة لم يتعدّ الألفاظ ، وأنه لم يجعل من نهيٍ أمراً ، ولا من أمرٍ نهياً ، ولا من آية رحمة آية عذاب ، ولا من آية عذاب آية رحمة . والشأن كذلك فى كل ما روى عن قراءات الصحابة وعن مصاحفهم ومصاحف التابعين . ولقد قدّم المستشرق « أرثر جفرى » لكتاب المصاحف لابن أبى داود وأورد كل ماروى عن هذا الاختلاف فى القراءات والمصاحف ، فلم يزد الأمر على ما قدّمت من الأمثلة . وعلة ذلك راجعة إلى ما ذكرنا عن الحديث : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » .

وما كان الخلاف ليزيد على هذا فى حياة الذين تلقّوا القرآن عن رسول الله فكتبوه أو وعته صدورهم فى تقديس لكلام الله و إيمان به يحولان دون الزيادة فيه أو النقص منه أو تحريفه . لكن هؤلاء القراء رجال كتب عليهم الموت كما كتب على الذين من قبلهم . ولقد استحرّ القتل فى طائفة منهم فى حياة النبى ببئر معونة ، ثم استحرّ القتل فيهم فى اليمامة . فإذا ذهب أكثرهم أو ذهبوا جميعاً لم يكن عجباً أن يقوم من يزيد فى القرآن أو ينقص منه ، ومن يحرّف كلام الله عن مواضعه . ثم لا عجب أن يختلف الناس على هذا وأن ينتهى اختلافهم إلى الثورة يصلى المسلمون نارها و يصيب الإسلام منها ضرٌّ كبير .

الذين ارتدوا وزعموا أنهم يزيفون الوحى

كان لعمر ولأبى بكر ولزيد بن ثابت مما حدث فى بلاد العرب نذير يعظهم أن يتقوا هذا اليوم . فقد ارتدّ فى حياة الرسول بعض الذين أسلموا وكانوا يكتبون الوحى ، ثم زعموا أنهم كانوا يزيّفون ما يكتبون و يلقونه على المسلمين زائفاً . و روايات المنافقين وما كانوا يصنعون من ذلك ومن مثله واردة فى كتب السيرة . و فى قصة مسيلمة بعض هذا النذير . فهو إنما استغلظ أمره بعد أن ذهب نهار الرحّال بن عُنْفُوة من قِبَل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمامة يُقرئ أهلها القرآن و يفقّههم فى الدين ، فلم يلبث حين رأى السواد من أهل اليمامة يتبع مسيلمة أن أقر بنبوته ، وشهد بأن محمداً يقول إن مسيلمة قد أُشرك فى الرسالة معه . وكان

نهار فقيهاً يتلو على الملأ القرآن الذى أوحى إلى محمد ويقص عليهم تعاليمه ويفقّههم فى دينه . هذا وما حدث من مثله إثر وفاة الرسول إذ نجم النفاق واشرأبت الأعناق يشهد بما لحجة عمر فى جمع القرآن بعد اليمامة من قوة تذهب بكل تردّد .

وماذا بعدُ فى جمع القرآن مما لم يصنعه رسول الله حتى يتردد أبو بكر أو يتردد زيد بن ثابت بسببه !؟ لقد أمر عليه السلام أن يكتب الوحى وأن تكتب الآيات مرتّبة فى السور . وما منعه أن يأمر بجمع القرآن قبل أن يختاره الله إليه إلا أن الوحى كان يتتابع وأن بعض الآيات كانت تُنْسَخ . أمّا وقد قُبِض فانتهى نزول الوحى وتمّ كتاب الله وكمل دينه ، فالخير فى أن يجمع القرآن حتى لا يتعرّض لما خشى علىٌّ ابن أبى طالب أن يتعرّض له من زيادة فيه أو نقص منه ، وبخاصة بعد أن قُتل من القراء باليمامة من قُتل ؛ ويخشى أن يقتل منهم آخرون فى مواطن غير اليمامة .

أحسب هـــذه وأمثالها من الحجج هى ما ساقه عمر حين ناقش أبا بكر فى جمع القرآن . وهي كما ترى حجج تحسم كل ريبة وتقطع بما فى الجمع من خير للإسلام والمسلمين . لهذا اقتنع أبو بكر برأى عمر ، ثم اقتنع به زيد بن ثابت[1] .

جمع القرآن أيام عثمان وسببه

ويجمل بى قبل أن أفصّل ما حدث بعد اجتماع الصدّيق والفاروق وكاتب الوحى لرسول الله أن أذكر أن ما حدث فى عهد عثمان قد أيّد ما رآه عمر من جمع القرآن ودل على صدق نظره فيه . فقد اتّسعت رُقعة الفتح فى عهد عمر وعثمان . وكان أصحاب رسول الله يقرءون القرآن ويعلّمونه من أسلم من أهل البلاد المفتوحة ؛ فاختلف الناس فى القراءة وعظم اختلافهم وتشتّتهم ؛ حتى إن الرجل ليقول لصاحبه : إن قراءتى خير من قراءتك ، وأفضل من قراءتك . وبلغ الأمر من ذلك حتى كاد

---

(١) يذكر أبو عبد الله الزنجانى فى كتابه تاريخ القرآن (طبع فى مصر فى سنة ١٩٣٥ م) أن « التأمل الصادق والشواهد يعطى أن اقتراح عمر جمع القرآن إنما كان لجمعه فى الورق ، حتى إن الصحابة لشدة احتياطهم وخضوعهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم خافوا أن يكون ذلك من البدع » .

يكون فتنة . اختلفوا وتنازعوا ، وأظهر بعضهم إكفار بعض والبراءة منه وتلاعنوا ، ورأى حُذَيفة بن اليَمان خلافَهم وتلاعنهم إذ كان يقاتل مع المسلمين على إرْمِينِيَةَ وأَذْرَبِيجَانَ ، ففزع وكرّ راجعاً إلى المدينة ودخل على عثمان قبل أن يدخل إلى بيته ، فقال له : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك . قال عثمان : فيماذا ؟ قال : فى كتاب الله . إني حضرت هذه الغزوة وقد جمعت ناساً من العراق والشام والحجاز ، ثم وصف له ما تقدّم من اختلافهم فى القراءة ، وأردف : وإنى أخشى عليهم أن يختلفوا فى كتابهم كما اختلف اليهود والنصارى[1] . ورأى عثمان الخطر ، فجمع الناس فعرض عليهم الأمر ، فسألوه رأيه فقال : الرأى عندى أن يجتمع الناس على قراءة ؛ فإنكم إذا اختلفتم اليوم كان مَنْ بعدكم أشدّ اختلافاً . وأقرّه أهل الرأى ، فأرسل إلى حفصة يسألها أن ترسل إليه مصحف أبى بكر لنسخه فى المصاحف . وكان ذلك أوّل ما حدث فى جمع مصحف عثمان وتوحيد قراءة القرآن .

عمر وصدق نظره فى المشورة بجمع القرآن

هذا الخلاف فى عهد عثمان بالغ الدلالة على أن عمر كان صادق النظر حين أشار على أبى بكر بجمع القرآن . وقد اتخذ عثمان مصحف أبى بكر إماماً لهم فى توحيد القراءة . فلو أن أبا بكر لم يجمع القرآن لتفاقم الخلاف ، ولأصاب المسلمين من ذلك شرّ أنجاهم عمل الصدّيق منه . من ثَمّ لم يَغْلُ عليٌّ بن أبى طالب حين قال :

---

(١) وفى رواية أثبتها ابن أبى داود فى كتاب المصاحف باسناد مختلف أن عبد الله ابن مسعود كان يقرأ فى المسجد ، فجاء حذيفة فقال : يقول أهل الكوفة قراءة عبد الله بن مسعود ويقول أهل البصرة قراءة أبى موسى الأشعرى . والله لئن قدمت على أمير المؤمنين لأمرته أن يغرقها . فرد عليه ابن مسعود : أما والله لئن فعلت ليغرقنك الله فى غير ماء . وروى أن حذيفة قالها فى غير حضرة عبد الله بن مسعود ، ثم اجتمع عبد الله وحذيفة وأبو موسى فوق بيت أبى موسى فقال عبد الله لحذيفة : أما إنه قد بلغنى أنك صاحب الحديث — يعنى قوله أما والله أن لو قد أتيت أمير المؤمنين لقد أمرته يغرق هذه المصاحف . وأجابه حذيفة : أجل ! كرهت أن يقال قراءة فلان وقراءة فلان ، فيختلفوا كما اختلف أهل الكتاب .

« أعظم الناس أجراً فى المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبى بكر ، هو أول من جمع بين اللوحين » .

غضب ابن مسعود لعزله عن جمع القرآن

شرح الله صدر أبى بكر لجمع القرآن بعد حواره مع عمر ، فعهد إلى زيد بن ثابت أن يتتبعه فيجمعه . رُوِىَ أن عبد الله بن مسعود غضب لذلك وقال : يامعشر المسلمين ! أُعزل عن نسخ المصاحف و يتولّاه رجل والله لقد أسلمت و إنه لفى صلب رجل كافر ! . يريد زيد بن ثابت . وقد نسب هذا القول إلى ابن مسعود حين أمر عثمان زيداً بجمع القرآن وأردفه بمن أردفه بهم من الصحابة . ولعل عبد الله غضب فى المرتين لما ذكره القرطبىّ حين قال : « قال أبو بكر الأنبارىّ : ولم يكن الاختيار لزيد من جهة أبى بكر وعثمان على عبد الله بن مسعود فى جمع القرآن ، وعبد الله أفضل من زيد وأقدم فى الإسلام وأكثر سوابق وأعظم فضائل ، إلا لأن زيداً كان أحفظ للقرآن من عبد الله » . وهذه العبارة ترجح غضب ابن مسعود فى المرتين .

وقد بلغ غضب ابن مسعود لهذا الأمر أمداً بعيداً ، حتى كان يقول : « لقد قرأت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة و إن لزيد بن ثابت ذؤابتين يلعب مع الصبيان » . بل لقد حرّض أهل العراق فى عهد عثمان على ألا يعاونوا فى هذا العمل ، وكان يقول لهم : « إنى غَالٌّ مصحفى ، فمن استطاع منكم أن يَغُلَّ مصحفاً فليفعل ؛ فإن الله يقول : (وَمَنْ يَغْلُلْ يأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَة) » . وخطب الناس يوماً فقال : « (ومن يَغْلُلْ يأْتِ بما غَلَّ يوم القيامة) غُلُّوا مصاحفكم . وكيف تأمرونى أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت وقد قرأت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعاً وسبعين سورة و إن زيد بن ثابت ليأتى مع الغلمان له ذؤابتان . والله ما نزل القرآن إلا وأنا أعلم متى وفى أى شىء نزل . ما أحدٌ أعلم بكتاب الله منّى . وما أنا بخيركم . ولو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله منى تُبْلِغُنِيه الإبل لأتيته » .

كره رجال أفاضل من أصحاب النبيّ مقالة ابن مسعود ، ورأوا فيها تحريضاً على الفتنة لا مسوِّغ له . روى عن أبي الدرداء أنه قال : « كنا نعدّ عبد الله حناناً فما باله يُواثب الأمراء! ». صحيح أن عبد الله بن مسعود بَدْريٌّ وزيد بن ثابت ليس بدريًّا . ولعبد الله سابقة فى الإسلام على زيد وعلى أبيه ثابت بن زيد . وهو قد تلقّى عن رسول الله نيفاً وسبعين سورة من القرآن . لكن زيداً كان كاتب رسول الله ، وقد تلقى عنه القرآن كله إلى وفاته . يقول القرطبي : « الشائع الذائع المتعالم عند أهل الرواية والنقل أن عبد الله بن مسعود تعلّم بقية القرآن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قال بعض الأئمة : مات عبد الله بن مسعود قبل أن يختم القرآن » . وقد جاء مصحف ابن مسعود خلواً من المعوذتين .

لماذا فضل أبو بكر زيد بن ثابت على عبد الله بن مسعود

سقنا حديث عبد الله بن مسعود وغضبه حجّةً على حسن اختيار أبي بكر زيد ابن ثابت لجمع القرآن . وذلك قول الصدّيق لزيد بعد أن أقنعه برأى عمر : « إنك رجل شابٌّ عاقل ولا نتهمك . كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبّع القرآن فاجمعه » . ويضيف القرطبي على العبارة التى نقلناها فى تفضيل زيد على عبد الله قول أبي بكر الأنباريّ : « إن زيداً كان أحفظ للقرآن من عبد الله إذ وعاه كله ورسول الله حيّ ، والذى حفظ منه عبد الله فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم نيِّف وسبعون سورة ، ثم تعلم الباقى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . فالذى ختم القرآن وحفظه ورسول الله صلى الله عليه وسلم حيٌّ أولى بجمع المصحف وأحقّ بالإيثار والاختيار » .

ولعل أبا بكر قد اختار زيداً وآثره على غيره من أصحاب رسول الله لأنه شاب ، فهو أقدر على العمل منهم ، وهو لشبابه أقل تعصباً لرأيه واعتزازاً بعلمه . وذلك يدعوه إلى الاستماع لكبار الصحابة من القرّاء والحفّاظ ، والتدقيق فى الجمع دون إيثار لما حفظه هو ، وإن كان المتواتر أنه حضر العرضة الأخيرة للقرآن

حين عرضه رسول الله على جبريل للمرة الثانية فى السنة التى كانت فيها وفاته .

كيف أثبت زيد القرآن فى مصحفه

شعر زيد بجسامة التّبعة التى ألقاها الخليفة على عاتقه وقدرها قدرها ؛ وذلك قوله : « فوالله لو كلّفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن » . وكيف لا يشعر بجسامة التبعة وهو يعلم أن أبا بكر يحفظ القرآن ، وعمر يحفظه ، وعلىٌّ يحفظه ، وعثمان يحفظه ، وكبار الصحابة يحفظونه أو يحفظون منه أجزاء كثيرة . بل إن أربعة قد تلقّوا القرآن عن رسول الله وكتبوه مرتب الآيات فى السور ، وكتب غيرهم ، ومنهم عبد الله بن مسعود ، مصاحف بعضها كامل و بعضها غير كامل ، وهؤلاء جميعاً رقباء عليه يحاسبونه أدقّ الحساب . والرقابة الكبرى ! رقابة صاحب القرآن من أوحاه إلى رسوله ، أعظم من كل رقابة . وهى التى جعلت زيداً يشعر بأن نقل جبل من الجبال أيسر مما كلّفه الخليفة إياه . و إيمان زيد بن ثابت بأن الله رقيب عليه فى جمع كلامه جلّ شأنه هو الذى سما به ليقدُر ما لهذا الأمر من جلال ، وليبذل فيه كل جهد و يستهين بكل مشقّة ، وألا يدّخر وسعاً فى جمع كل ما سُطر القرآن فيه من الرقاع والأكتاف واللِّخاف[1] والعُسب ومن صدور الرجال ، وفى موازنة ذلك كله بعضه ببعض ، وموازنته بما حفظ هو عن رسول الله فى السنة الأخيرة من حياته ، والوصول من الجمع إلى الغاية التى يبتغيها خليفة رسول الله والتي ترضى الله ورسوله . بذلك صار هذا المصحف المجموع إماماً استراح إليه المسلمون . فلما أراد عثمان توحيد القراءات جعله إمامه .

ولست فى حاجة إلى القول بأن زيداً لم يثبت القرآن فى مصحفه على تاريخ نزوله بعد أن رُتبت الآيات فى السور بأمر رسول الله ، فَوُضِع بعض ما نزل منها بالمدينة فى السور المكية . إنما تتبع زيد السور كما رتبها رسول الله ، ثم نسخها فى

---

(١) اللخاف : حجارة بيض عريضة رقاق .

الورق أو فى الأديم ، فلما تمّ له نسخها كانت عند أبى بكر ، ثم عند عمر ، ثم عند حفصة .

طريقة زيد فى الجمع هى الطريقة العلمية المألوفة اليوم

أية طريقة اتّبع زيد فى الجمع ؟ تستطيع أن تقول فى غير تردد إنه اتّبع طريقة التحقيق العلمى المألوفة فى عهدنا الحاضر . وقد اتّبع هذه الطريقة بدقة دونها كل دقة . فقد طلب أبو بكر إلى كل من عنده من القرآن شىء مكتوب أن يجىء به إلى زيد ، وإلى كل من يحفظ القرآن أن يُدْلِى إليه بما يحفظه . واجتمع لزيد من الرقاع والعظام وجريد النخل ورقيق الحجارة وكل ما كتب أصحاب رسول الله القرآن عليه الشىء الكثير . عند ذلك جعل يرتّبه ويوازنه ويستشهد عليه ، ولا يثبت آية إلا إذا اطمأن إلى إثباتها كما أوحيت إلى رسول الله . رُوى أن عمر ابن الخطاب قرأ : « والسَّابِقُونَ الأَوّلون مِنَ الْمُهَاجِرِينَ والأَنْصَارُ الّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بإحْسَانٍ » ، برفع كلمة « الأنصار » ومن غير واو العطف بينها وبين « الذين » ، فقال له زيد بن ثابت : « والّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بإحْسَانٍ » واختلفا . فدعا عمر أُبىّ بن كعب وسأله عن ذلك فأقرّ قراءة زيد . وليزيل كل ريبة من نفس عمر قال : « والله ، أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت تبيع الحنطة » ، فاذّكر عمر وقال : نعم ! وتابع أُبيًّا وأقر قراءة زيد . وكذلك كان يصنع زيد كلما خالفه من الصحابة أحد ، وكلما وجد فى المكتوب فى الرقاع والعظام وغيرها خلافاً ، يستشهد ويستقصى ، ولا يمنعه من ذلك أنه يحفظ القرآن ، وأنه حضر قراءة رسول الله إياه قبيل وفاته . وهذا الخلاف على حرف الواو فى الآية السابقة يدلك على مبلغ هذه الدقة ، ويشهد بأن زيداً لم يضن بمجهود فى القيام بالعمل العظيم الذى عهد فيه أبو بكر إليه .

وقد كانت هذه الدقة فى جمع القرآن متصلة بإيمان زيد بالله . فالقرآن كلام الله جل شأنه . فكل تهاون فى أمره أو إغفال للدقة فى جمعه وزرٌ ما كان أحرص زيداً فى حسن إسلامه وجميل صحبته لرسول الله أن يتنزه عنه . ولقد شهد المنصفون

من المستشرقين جميعاً بهذه الدقة ، حتى ليقول سير وليم ميور : « والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل اثنى عشر قرناً كاملا بنص هـذا مبلغ صفائه ودقته »[1] .

نظام تتابع السور فى المصاحف

على أن زيداً لم يأخذ مع الدقة فى جمع السور مرتبـة الآيات بتنسيق السور فى المصحف واحدة تلو الأخرى ، وإنما كان التنسيق على النحو الذى نعرفه اليوم فى عهد عثمان . وقد اختلف فيما كان منه فى عهد النبيّ ؛ قال بعضهم : إنه صلى الله عليه وسلم تركه لأمته ، وقال بعض : بل ذكر الرسول نظام التتـابع لبعض السور وترك بعضها . وقال غيرهم : بل ذكر نظامهـا جميعاً . ذكر ابن وهب فى جامعـه قال : سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعـة يُسأل : لم قُدِّمت البقـرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة وإنمـا نزلتا بالمدينة ؟ فقال ربيعة : « قد قدِّمتا وأُلِّف القرآن على علم ممن ألّفه . وقد اجتمعوا على العلم بذلك ، فهـذا مما ننتهى إليه ، ولا نسأل عنه » . وقال قوم من أهل العلم : إن تأليف سور القرآن على ما هو عليـه فى مصحفنا كان عن توقيف من النبيّ صلى الله عليـه وسلم . وأما ما رُوى من اختلاف مصحف أبيّ وعليّ وعبد الله ، فإنما كان قبل العرض الأخير ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رتّب لهم تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك[2] .

---

(١) طعن الرافضة على جمع القرآن واحتجوا بقول زيد بن ثابت : وجـدت آيتين من سورة التوبة مع خزيمة الأنصارى لم أجدهما مع غيره « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » إلى آخر السورة ، وبأنهم وجدوا آية من سورة الأحزاب « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه الخ » مع خزيمة كذلك . وهـذا الاعتراض ساقط لأن زيد بن ثابت كان يحفظ هذه الآيات ، وقد وافق الصحابة خزيمة على أنهم سمعوها من رسول الله . هذا على أنها من أساوب القرآن ونسجه ، وأنها متصلة تمام الاتصال بسياق القول . أما وهذه الأسانيد كلهـا متواترة مجتمعة فاعتراض الرافضة غير ناهض .

(٢) راجع ص ٥٢ من الجزء الأول من تفسير القرطبى « الجامع لأحكام القرآن » .

يخالف بعضهم هذا الرأى ، ويرى أن ترتيب السور لم يكن بتوقيف من رسول الله ، ويحتج بأن عليّ بن أبى طالب لم يجمع مصحفه إلا بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، وكذلك فعل عبد الله بن عبّاس . فلو أن رسول الله قد رتّب السور لكان عليٌّ وابن عباس أجدر بأن يصنعا ذلك وأن يرتّباها كما أمر رسول الله . ولم يرتب زيد بن ثابت السور حين جمع القرآن فى عهد أبى بكر . فترتيب السور قد كان كله أو بعضه اجتهاداً من الصحابة ولم يكن مما أمر به رسول الله[1] .

والرأى بأنه صلى الله عليه وسلم لم يرتّب السور كلها أو بعضها ووكل أمر ذلك إلى الأمة بعده يأخذ به كثيرون[2] . روى عن ابن عباس أنه قال : « قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المَثانِى وإلى بَراءة وهى من المِئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها فى السبع الطِّوال ؟ فقال عثمان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السورة ذات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة . وكانت براءة من آخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت أنها منها ؛ فقُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبيّن لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتهما فى السبع الطوال » .

لماذا قرن عثمان ابن عفان بين سورتى الأنفال وبراءة

لم يكن القول فى ترتيب السور فى المصحف مما يدخل فى نطاق هذا الفصل . وإنما أدى إليه الاستطراد إيضاحاً لقول القرطبى عن زيد بن ثابت وجمعه القرآن فى عهد أبى بكر : « جمعه غير مرتب السور ، بعد تعب شديد ، رضى الله عنه » .

---

(١) راجع تاريخ القرآن لأبى عبد الله الزنجانى ، ص ٤٧ — ٥٨

(٢) راجع الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، ج ١ ، ص ٦٣ — ٦٤

متى أتم زيد جمع القرآن

أأتم زيد جمع القرآن فى عهد أبى بكر أم استغرق عمله هذا زمناً من عهد عمر ؟ ذلك أمر اختلف فيه . وقد رأينا فى رواية البخارىّ أن الصحف التى جمع زيد فيها القرآن كانت عند أبى بكر حتى توفّاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر أم المؤمنين . وهذا القول يؤدّى إلى أن الجمع تم فى عهد أبى بكر . ويذهب بعض الرواة إلى أن الجمع استغرق زمناً من عهد عمر . وليس يتيسر القطع بأىّ الروايتين أصح ، وإن أمكن التوفيق بينهما بأن زيداً أتم جانباً كبيراً من الجمع فى عهد أبى بكر وجعل صحف هذا الجانب عند الخليفة ؛ وقُبِضَ الصدِّيق فأخذ عمر ما كان عنده من هذه الصحف ، فلما أتم زيد جمع ما بقي من القرآن أضيفت صحفه إلى الصحف الأولى ثم كانت كلها عند عمر . وهذه الصحف هى التى كانت المصحف الإمام فى عهد عثمان وهى التى نتلوها اليوم ، وسيتلوها مَنْ بعدنا من المسلمين وغير المسلمين حتى يوم الدين .

كان أبو بكر أعظم الناس أجراً فى جمع المصاحف

« رحمة الله على أبى بكر ! كان أعظم الناس أجراً فى جمع المصاحف » . كذلك قال علىّ بن أبى طالب ، وذلك ما يقوله كل مسلم . ولقد طالما سألت نفسى وأنا أكتب هذا الكتاب : أى أعمال الصدِّيق أعظم : قضاؤه على الردة والمرتدين فى بلاد العرب ، أم فتحه العراق والشام وتمهيده بذلك للإمبراطورية الإسلامية العظيمة التى حملت عبء الحضارة الإنسانية قروناً متعاقبة ، أم جمعه القرآن كتاب الله إلى رسوله محمد النبى الأمى هدى ورحمة للعالمين ؟ طالما سألت نفسى وفكرت أتلمّس الجواب . ولم أتردد قط فى الإجابة . فجمع القرآن أعظم أعمال أبى بكر لا ريب ، وأكثرها بركة على الإسلام والمسلمين والناس أجمعين . لقد اضمحلت جزيرة العرب وتقلّصت منها أسباب القوة والحياة بعد عهد بنى أمية . وقد تداعت الإمبراطورية الإسلامية وخضع المسلمون فى أرجاء الأرض لغير المسلمين ولسلطان حكمهم . ولقد نسى الناس هذه الإمبراطورية وكادوا ينسون بلاد العرب .

ولولا مناسك الحج لضمت شبه الجزيرة إلى مجاهل الأرض فلا يصل إليها إلا المستكشفون . أما كتاب الله الكريم فإنه خالد باق على الدهر ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حكيم .

جمع القرآن أعظم ما تم فى عهد أبى بكر

ولا يحسبن أحد أنى بما أذكر من ذلك أهوّن من أمر حروب الردة أو من أمر الإمبراطورية الإسلامية . فكل من هذين الأمرين عظيم أى عظيم ، وكل عمل منهما كاف وحده ليخلد حياة من يقوم به . ولو أن أبا بكر وقف من خلافته عند القضاء على الردّة لشهد الناس جميعاً له بعظمة ما قام به وبجلاله . ولو أنه لم يصنع أكثر من أن وضع القواعد للإمبراطورية الإسلامية لأقرّوا كلهم له بالعظمة وخلود الذكر على صفحات الدهر . فإذا حفل عهده بهذين الأمرين البالغين كل هذا الجلال وكل هذه العظمة ، ثم كان فيه جمع القرآن ، وهو أبقى منهما جميعاً وأعظم ، فذلك الخلد الذى لا خلد بعده ، والرضا من الله لا يؤتاه إلا الصدّيقون الذين سما إيمانهم فيسّر الله لهم كل عظيم وهيأ لهم من أمرهم رشدا .

رحم الله أبا بكر ، وأجزل له الأجر ، إنه كان من عباده المخلصين .